عن معاويةَ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:

١ «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ،

٢ وإنَّما أنا قاسمٌ، واللهُ يُعطِي،

٣ ولن تزالَ هذه الأُمَّة قائمةً على أمر الله، لا يَضرُّهم مَن خالَفَهم، حتى يأتيَ أمرُ الله»[٤٣].

(٤٣) البخاريُّ (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

آيات

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].
- ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].
- ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]

الراوي

هو: معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ صخرِ بنُ حربٍ، وأمُّه هندُ بنتُ عُتبةَ، أسلم في عمرة القضاء، وأظهر إسلامه يوم الفتح حين أسلم أبوه، وأخته أمُّ حبيبةَ زوجُ النبيِّ ﷺ، كان من كتبة الوحي للنبي ﷺ، وولَّاه عمرُ بنُ الخطَّاب الشام، تولى الخلافة بعد فتنة مشهورة، وبايع له الحسن ﷺ بالخلافة، تُوفِّي سنةَ (٦٠هـ)[١].

خلاصة

رغَّب النبيُّ ﷺ في طلب العلم الشرعي والتفقه في دين الله، فذكر أن الله إذا أراد بعبدٍ خيرًا علَّمه الدين وفقَّهه فيه. ثم ذكر ﷺ أنه إنما يقسم ما أعطاه الله وفق ما أراد الله، لئلا تبالغ أمَّتُه في حقِّه فيرفعونه فوق قدره. ثم بشَّر أمته بأن هذا الدينَ باقٍ ما بقي الليل والنهار.

(١) تُراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة لأبي نعيم» (٥/ ٢٤٩٦)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر» (٣/ ١٤١٦)، «أسد الغابة لابن الأثير» (٤/ ٤٣٣).

١ من أراد الله له تعالى الخير العظيم في الدنيا والآخرة؛ يسر له **حسن الفهم لأحكام الإسلام**، وأوامره، ونواهيه، ومقاصده، ويزداد ذلك بما يعلمه من معرفة المسائل بأدلتها، والنظر في الآيات والأحاديث والآثار، وتعلُّم أصول العلوم المساعدة على فهمها، والاجتهاد لمعرفة الصواب.

ومفهومُ الحديث أن مَن لم يتفقَّهْ في الدين فقد حُرِم الخيرَ[٤٤]، وإنما خصَّ عِلمَ الدين بالذِّكر دونَ سائر العلوم؛ لأنه أشرفُها، فهو الموصِّلُ إلى الله، وبه تكون عبادتُه وطاعته واجتنابُ نواهيه، ومِن ثَمَّ مصالح الدنيا والآخرة، والنجاة من مهالكهما، وسائر العلوم هي تبعٌ وخدَمٌ لعلوم الدِّين، وقاصرةٌ دونها[٤٥].

٢ ثمَّ بيَّن ﷺ أنَّه **خازنٌ يتولى قسمة ما أعطاه الله تعالى**، سواءً كان عطاءَ المال والرزق أو عطاءَ العلم.

فمعنى أنه ﷺ قاسمٌ في العلم أنه يُبلِّغ ما أُمر ببلاغه، دون أن يبخس أحدًا منه، وأن الفَهْم والفقه إنما هو هِبةٌ وعطاء من الله عزَّ وجلَّ على ما أراد بحكمته.

٣ ثم بشَّر ﷺ أُمَّته أن الله تعالى سيجعلها مستمرةً في كل زمنٍ على دينها، وناصرة له، محفوظة من هلكتها بأيدي أعدائها، لا ينقص درجتها عند الله تعالى، مهما خالفها العدو بحرب فكرية أو عسكرية.

ويكفي في تحقق ذلك بقاء طائفة من الأمة على ذلك، وأما بعض الأمة فقد يتخلى عن القيام عن بعض أمر الله تعالى.

٤ ويستمر قيام هذه الأمة إلى **آخر الزمان**، ولعل المراد به ما في حديث أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن اللهَ يبعثُ ريحًا من اليمن ألْيَن من الحرير، فلا تدعُ أحدًا في قلبه مثقالُ حبَّة إيمان»[٤٦]. فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق.

---

(٤٤) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلانيِّ (١/ ١٦٣- ١٦٤).

(٤٥) انظر: «شرح صحيح البخاريِّ لابن بطَّال» (١/ ١٥٤).

(٤٦) مسلم (١١٧).

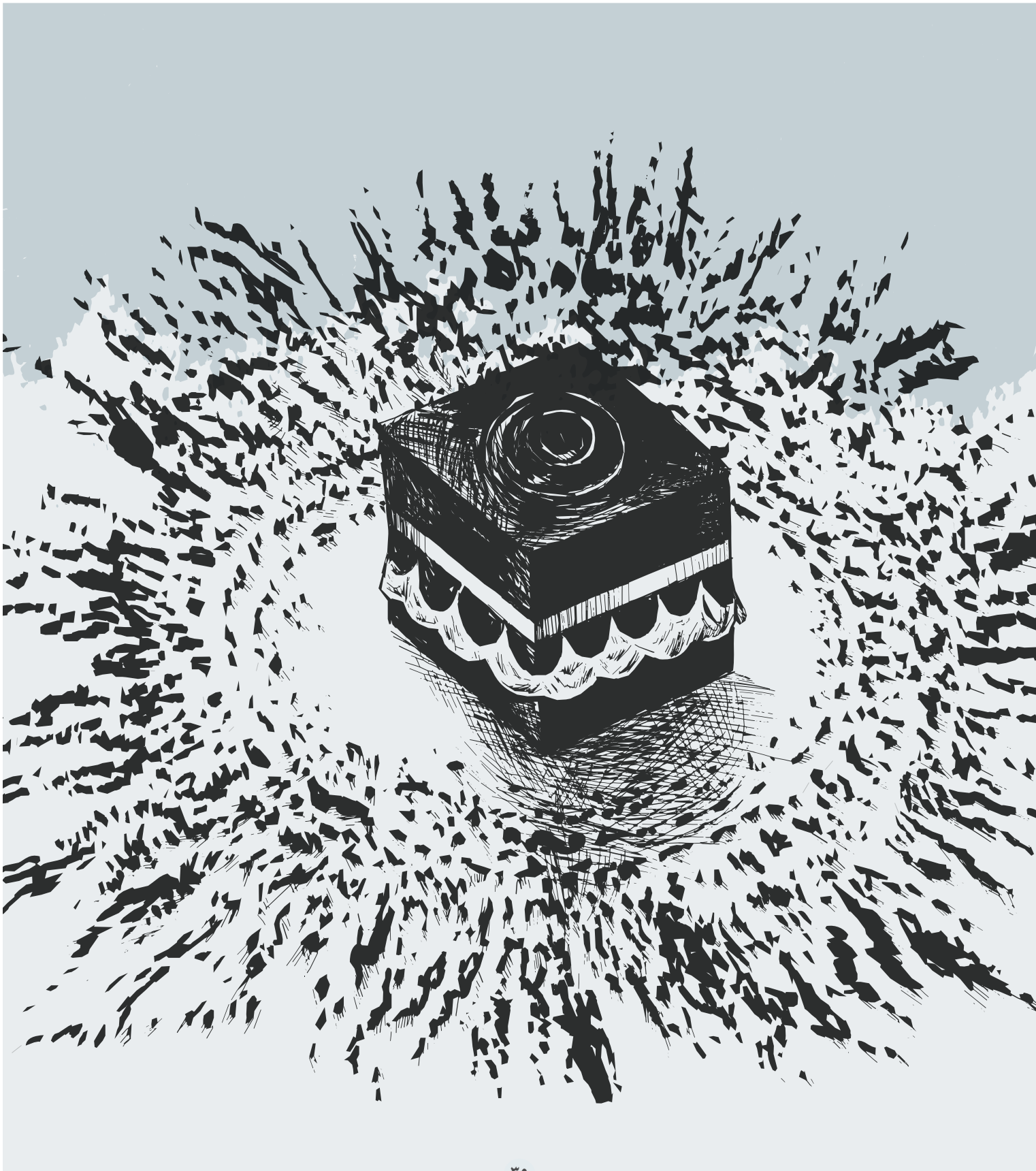

اتّبعني

١ إذا أردت الخير فاطلبه في مظانه، وذلك فيما أرشدك إليه رسول الله ﷺ، فاللهُ هو الذي يعلم أين الخيرُ وييسره لمن أراد، وهو الفقه في دين الله تعالى.

٢ ليكن له بحث دائمٌ عن طرق الفقه في الدين، فالباحث عنها باحثٌ عن الخير في الدنيا والآخرة.

٣ اطلب كمال الفقه عند أصحاب رسول الله ﷺ، فهذا ابن عباس رضي الله عنهما -وهو دون الخلفاء الراشدين- كان ممن دعا النبيُّ ﷺ له حين وضع له ماءً لوضوئه، فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٤٧).

٤ تقويم الناسِ يكون بمقدار ما ظهر عليهم من الخير، والفقهُ في الدين وظهورُ آثاره هو من أعظم ما يوزن به الناس: عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ رضي الله عنه بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، فقال: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ فقال: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(٤٨).

٥ التفقُّه فعل مستمر، وفي كل تفقُّهٍ جديد خيرٌ مزيد، ولم يأمَر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يطلب الزيادة إلا في العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فلا تقف في العلم على حدٍّ معين، أو عُمُر معين.

(٤٧) البخاريُّ (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٤٨) مسلم (٨١٧)، وعُسفان منطقة شمال مكة بقرابة ٨٥ كلم، قرب شمال شرق جدة، و«مولى» أي كان أو كان آباؤه عبيداً فأعتقوا، وهو نقص عند العرب.

٦ كان النبيُّ ﷺ قائمًا على الناس بمصالحهم في العلم والمال ونحوهما، فكلُّ من ولّاه تعالى إرثًا من إرثِ النبي ﷺ بالمسؤولية على علم أو مال فليعلم أنه مجرد قاسم لما أعطاه الله تعالى، فلا يغترَّ، ولا يقصِّر، وليقسم على ما أراده الله تعالى.

٧ لا تخف على دين الله تعالى، ولا تحزن لما يصيب هذه الأمة مما قدره الله تعالى من العوارض في أمر دينها ودنياها، فلا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على دين الله ونصرته، لا يضرها المخالف وهو استعمل يده وفكره في حربها، فكن من تلك الفئة الخاصة عند ربها.

قال الشاعر:

العلـمُ مُبلِـغُ قـومٍ ذِرْوَةَ الـشَّرَفِ ... وصاحـبُ العِلْـمِ محفـوظٌ مـن التَّلَـفِ
يـا صاحـبَ العِلْـمِ مَهْـلًا لا تُدَنِّسُـه ... بالمُوبقـاتِ فـما للعلـمِ مـن خَلَـفِ
العلـمُ يَرْفَـعُ بَيْتًـا لا عِـمَادَ لـهُ ... والجهـلُ يَهْـدِمُ بَيْـتَ العـزِّ والـشَّرَفِ